

من كربلاء إلى دمشق

لايوم كيومك يا أبا عبدالله الإمام الحسن «ع»



السقط (مشهد المحسن)، سقط إحدى نساء الحسين الذي دفن جنوب مشهد النقطة، كما يسميه البعض مشهد الدكة، تسرين، حصص، وتتشرف بمشهد للإمام علي بن أبي طالب وضمت قبور أولاد أخيه جعفر، بعليك وأقيم فيها مسجد رأس الإمام الحسين الذي شيده أهل المدينة أنفسهم إكراماً لرأس الحسين الشهيد الذي شرفهم بالمرور عليها، وبعليك تضم أيضاً ضريح السيدة خولة بنت الحسين وأخيراً دمشق.

الرؤوس والسبايا في قصر يزيد

فلما وصلت القافلة أدخلت على يزيد بن معاوية، وهي مربوطة بعضها مع بعض النساء والغلمان الذين غلت أيديهم إلى رقابهم، ثم أخذ ينكت الرأس الشريف أمام المملأ بادياً شامتته في بنات وأولاد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يتمثل بأبيات عبدالله بن الزبيري:

ليست أشيأخي ببيدر شهيدوا

وقعدة الخنزرج من وققع الأسفل

قد قتلنا القنن من ساداتهم

وعدلتنا به ببيدر فاعتدل

فقال له أبويزيد الأسلمي فضلة بن عبيد، وكان من الحاضرين: «ارفع قضيبك يا يزيد، فوالله، لظلمنا رأيت رسول الله (ص)، يقبل ثنياه، ثم أرفد قاتلاً: «إلا أن هذا (ويقصد الحسين) سيحيي يوم القيامة وشفيعه رسول الله صلى الله عليه وآله، ويحيي أنت وشفيعة ابن زياد، ثم دارت حوارات بين الأسارى والسبايا وبين أسريهم ومن سيوهم كانت الغلبة والنصر لآل بيت رسول الله والهزيمة والعار إلى يزيد ومعسكره.

وأنا هنا أنقل جزءاً من خطاب العقيلة زينب في مجلس يزيد هذه المرأة الهاشمية التي شرفت كل نساء العالم، بل شرفت البشرية جمعاء حيث خاطبت يزيد بخطبة جاء فيها: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله أجمعين، صدق الله كذلك يقول: «ثم كان عاقبة الذين أسأؤوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون».

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض، وأفاق السماء، فأصبحتنا نساق كما تساق الإماء، إن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة! وإن ذلك لعظيم خطر عندك! فشخت بأفكك، ونظرت في عطفك جذلاً مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله عز وجل: «ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً، ولهم عذاب مهين».

أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك إما بك ونساءك، وسوق بنات رسول الله سبايا؟! قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوهن، تحمد بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المنازل والمناهل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حماتهن حمي».

وقالت النكبات والثورات على الأمويين

بعد استشهاد العترة الطاهرة

لقد واجهت الدولة الأموية بعد مقتل الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه في كربلاء رداً فعل عنيفة، كما واجهتها الدولة الأموية بعنف جاهلي أشد فتكاً وإبلاماً، إلا أن الفعل ورد الفعل قد عجل باضمحلال الدولة الأموية فأول رداً الفعل الشديدة لمقتل الإمام الحسين الثورة التي عرفت في التاريخ بثورة المدينة والتي قادها أشرف تلك المدينة ومنهم عبدالله بن حنظلة الأنصاري وعبدالله بن أبي عمرو بن حفص المخزومي والمنذر بن يزيد، إلا أن الجيش الشامي الأموي قمع الثورة بوحشية قل نظيرها وأباحوا دماً أهل المدينة، نسانتهم وأموالهم لمدة ثلاثة أيام بلياليها، وقد سبق هذه الثورة ثورة عرفت بثورة التوابين التي قادها بعض قادة الكوفة ومنهم سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة الغزالي وعبدالله بن سعد الأزدي وعبدالله بن وائل التميمي، وكانت ثورة تأثرية للحسين وآله رغم أنها قمعمت بشدة، ومن الثورات أيضاً الثورة التي قادها المختار بن أبي عبيدة الثقفي عام ٦٦٦هـ المصادف ٦٨٥م، ورغم فشل هذه الثورة إلا أنها قتلت قتلة الإمام الحسين وأهله وأصحابه بما فيهم عبدالله بن زياد وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وعمر بن الحجاج وشيث بن ربعي، كما ثار عبدالله بن الزبير الذي أعلن الثورة عام ٦٥هـ الموافق ٦٨٤م، إلا أن جماعته تخلوا عنه بما فيهم ابنه، فالتجأ إلى الكعبة المشرفة، وإذا بالحجاج بن يوسف الثقفي قائد جيش يزيد يقصف الكعبة بنبيران المنجنيق ويحرق أستارها وهي قبلة المسلمين والذي يعد الحجاج منهم.

ومن الثورات أيضاً ثورة مطرف بن المغيرة عام ٧٧هـ وثورة عبدالرحمن بن الأشعث وثورة زيد بن علي بن الحسين، ولولا المغامرة وعدم التخطيط وبروز الأطماع الشخصية في شخوص العديد من هذه الثورات وما كان بينهم من تناقض وتناحر ولو توحدوا لأسقطوا الدولة الأموية وهي في عهد خليفتها الثاني، ومع كل ذلك فقد عجلوا بإسقاطها، رغم أن الأمويين لجأوا إلى كل وسيلة وغاية من أجل شق صفوف المسلمين تحت شعار «الغاية تبرر الوسيلة»، حيث أثاروا الثورات التي حاربها الإسلام، كإذكا - الصراع بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج سكان المدينة وبين القحطانية والقيسية، وبين العرب والموالي وبين العرب والعجم، وهكذا لم تعمر الدولة الأموية إلا أقل من مائة عام، ولكن ثورة الحسين التي انتصر فيها الدم على السيف امتدت أربعة عشر قرناً ومازالت حية حتى قيام الساعة.

أهل الذمة وما شابههم كاليهود والنصارى والمجوس والصابئة أما الأمويون فقد جاؤوا بتشريع أخذ الجزية من أسلم من الشعوب التي فتحو بلادها، وحافظ الإسلام على وجوب أن يكون المجتمع ذي طابع إسلامي فجاؤوا الأمويون وتهاونوا في المظهر الإسلامي للمجتمع.

وأما يزيد.. وأما يزيد

وأما الخليفة الأموي يزيد بن معاوية الذي حكم المسلمين حوالي أربع سنوات وتيف فقد أحرق الأخضر واليابس، أليس هو من عاشر شعراء المجون وندماً مجالس الشرب، وكان شغله الشاغل ملاحقة الصيد في البراري بصحبة القرايين (مربي القرد) والفهاديين (مربي الفهود)، وله قرد أطلق عليه اسم «أبي قيس» يلبسه ملابس الحرير المطرز بالذهب والفضة ويتنادم مع الخمارين بجانب قرده «أبي قيس» ويركبه الجياد شارباً الحمر، تاركاً العبادات لأهلها، حتى مات بذات الجنب وله من العمر ٣٧ عاماً، وهو القائل لمثل صورة من حياته الماجنة الشامتة بجيش المسلمين:

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم

بالفرقدونة من حمى ومذموم

إذا اتكأت على الأتمساط مرتفعاً

بدير ممران عند أم كلثوم

هذا هو سيدهم يزيد الذي قتل سيدنا الحسين ابن بنت رسول الله، وسيد شباب أهل الجنة، أمرنا الله ورسوله والمؤمنون أن نحبه، صاحب الخلق الرفيع والأرحية السامية ونسبه الشريف، الذي سماه رسول الله جده لأمه «حسيناً» وقال عنه: «أحب الله من أحب حسيناً، حسين مني وأنا من حسين، من أذاه فقد أذاني».

وقتلوا خيرة من في الأرض

إلا أن شياطين الأرض قتلوا ملائكة السماء، بقية الله في أرضه يوم العاشر من المحرم من عام ٦١هـ الموافق للعاشر من يناير من عام ٦٨٠م، بعد أن أبلى الحسين وأبناؤه وإخوانه وأهل بيته وأصحابه بلاء، قل نظيره بعد أن حرقوا خيامه وسلبوا ما فيها، بل وجردوا الأجساد الطاهرة، مما يستترها من لباس وداسوا على جسد ابن بنت رسول الله بحوافر خيولهم واحتزوا رأسه ورووس بقية الشهداء - وهذه من البدع التي أكثر منها الأمويون نكابة برسول الله ودين رسول الله.

ترحيل الرؤوس والسبايا إلى الشام

وأصدر قائد الجيش الأموي عمر بن سعد استجابة لوالى الكوفة عبيدالله بن زياد أن ينصب رأس الحسين حبيب رسول الله على رمح ويظاف به في طرق وأرقة الكوفة، ثم في الثالث عشر من أكتوبر من عام ٦٨٠م أعدت قافلة الرؤوس الطاهرة والسبايا والأرامل والشكلى من آل بيت رسول الله وصحابة آل البيت بعد تركوا الأجساد الطاهرة في أرض كربلاء وسيروا إلى الشام وهم يرزحون في الحديد والقيود يحيط بهم الجيش الأموي الذي ثار لمجاهلة قريش وهزائم الأمويين في عهد محمد وعلي (عليهما سلام الله)، وكانت رحلة حزينة وكئيبة ومذلة لآل بيت رسول الله، وكانت رحلة قتلها الشوة والغرور والسرور والأفراح لأعداء الله ورسوله والمؤمنين، بعد أن طافت القافلة بمدن وقرى وصحارى عراقية وشامية تواصل الليل بالنهار، في الوقت الذي جمع عبيدالله بن زياد رأس الكفر والزندقة قتلا وصلوا عليهم ودفنهم.

من مهازل الزمان

ومن مهازل الزمان أن تساق الرؤوس الطاهرة والنساء والأطفال والإمام زين العابدين بالأغلال وسلاسل الحديد بقيادة عمر بن سعد وجيشه الكافر إلى قصر الإمارة الذي كان يتربع عليه عبيدالله بن زياد بن أبيه حيث أخذ ينكف بقضيب في يده ثنايا الرأس الشريف، فاحتج على فعلته النكراء زيد بن الأرقم قائلًا له: «ارفع قضيبك عن هاتين الفتيين، فوالله الذي لا إله إلا هو، لقد رأيت شفتي رسول الله (صلى الله عليه وآله) على هاتين الفتيين تقبلهما»، ثم أخذ يبكي، فقال له ابن زياد بن ابن مرجانة: «أبكي الله عينيك، لولا أنك شيخ، قد خرقت لضربت عتقك»، ثم أمر الطاغية بنصب رأس الحسين في ساحة الكوفة، بعد أن طيف به في أزقتها، بعد ذلك سيق القافلة بالرؤوس والسبايا والأسارى إلى الشام حيث يزيد بن معاوية خليفة المسلمين بموجب الأمر الواقع والقوة الغشوم وليس بحكم الشرع، وكانت القافلة تحت قيادة زحر بن قيس الجعفي وأبويزيد بن عوف وطارق بن أبي ظبيان الأزديين وتعليبة العائذي وشمر بن ذي الجوشن.

المدن التي مرت بها الرؤوس والسبايا

لقد مرت القافلة بالعديد من المدن والقرى في طريقها من الكوفة بالعراق إلى دمشق بالشام، منها مدينة الموصل، فكانت نقطة دم من رأس الحسين سقطت على صخرة، بعد أن وضع القوم الرأس عليها، فشيده الموالون لأهل البيت مسجداً مكان نقطة دم الحسين في سنجار وهي تبعد عن الموصل مدة ثلاثة أيام، ونصيبين تبعد عن سنجار ٤٣, ٥ كيلومتر، وتبعد عن الموصل ستة أيام، مدينة الرقة الفراتية وهي التي تضم مشهداً للإمام علي وقبر حفيده يحيى بن عبدالله العلوي، سكنه وكانت حينها تسمى بالس، مدينة حلب، التي أقيم فيها مشهد للإمام الحسين إكراماً لمرور القافلة فيها ويسمى مشهد النقطة، الواقع في حي الأنصار، وذلك إكراماً وإجلالاً لنقطة الدم التي سقطت من رأس الحسين هناك، وعندما وضع الرأس على حجر مرتفع، كما أقيم مشهد

كتب - عبدالله آل سيف:

إنها تراجيدا، إنها ملحمة لم يشهد التاريخ مثيلاً لها رغم قرونه الطويلة، كيف تجرأ النظام الجاهلي الأموي على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين في يوم العاشر من المحرم من عام ٦١هـ المصادف لليوم العاشر من شهر يناير من عام ٦٨٠م على ارتكاب أكبر جريمة شهدها التاريخ البشري طوال حياته، حيث أقدم قتل تسعة من آل بيت رسول الله بعد أن حرمهم من الماء وأصبحوا عفاشى تحت شمس محرقة من أرض صحراوية غريبة عليهم، كما قتل من أنصار آل البيت عشرة، ناهيك عن استشهاد مسلم بن عقيل مبعوث الحسين إلى العراق وهاني بن عروة أحد كبار أعيان الكوفة، قبل وصول الإمام الحسين ومعسكره إلى كربلاء الذي لا يزيد على الاثني والسبعين شخصاً هم خيرة أهل الأرض، وأحب الناس إلى أهل السماء منهم الرجال والنساء والأطفال، وقد قام بهذه المجزرة الرهيبة جيش أموي يتكون من قواد وجنود أرسلهم عبيدالله بن زياد الوالي الأموي على مدينة الكوفة، وعمر بن سعد قائد الجيوش الأموية في الكوفة والتي بلغت في أقل التقديرات ٣٢ ألفاً وفي أكثرها ٧٢ ألفاً، وشمر بن ذي الجوشن، أحد أشرس الجنود الأمويين وأكثرهم دموية وإجراماً وخسة ونذالة وهو الذي حر رأس الحسين الشريف بسيفه وهو جاثم على صدره، وجرملة بن كاهل الأسدي أحد جنود الأمويين الذي رمى طفل الحسين عبدالله الرضيع بسهم فأرداه قتيلاً وهو بين يدي أبيه الحسين، وسنان بن أنس أحد الجنود الأمويين الذي طعن الحسين بسهم مسموم، ومثقد العبدي الجندي الأموي الذي قتل الشاب القاسم بن الحسن بسيفه وما يملك من سلاح غيره.

وهل اكتفى هؤلاء القتل بالقتل؟

هؤلاء القتل السفلة الذين تخلوا عن الأخلاق والقيم والمثل الإنسانية، فهم لم يكتفوا بالتخلي عن دينهم بل وعن عروبتهم بعد أن تجردوا من قيم الأمة المتوارثة كما قال لهم الإمام الحسين بن علي (عليه السلام): «إذا لم يكن لكم دين، فكونوا عرباً أحراراً في دنياكم»، ولكن أنى يكونوا عرباً وأن يكونوا أحراراً في دنياهم وهم الذين باعوا كل قيمة إنسانية من أجل الدنيا، ألم يخاطب عمر بن سعد قائد الجيوش الأموية في كربلاء نفسه قائلاً لها:

فوالله ما أدري وأنسى لحائر

أفكر في أميري على خطرين

أأتورك ملك السري والسري منيتي

أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

وفي قتله النار التي ليس دونها

حجاب، وملك السري قسرة عيني

ولذا هذا القائد الجبان هو الذي أمر بحرق خيم أبناء رسول الله في كربلاء مما دفع النساء والأطفال وعلي بن الحسين وكان مريضاً أن يفروا من الخيام المحترقة على وجوههم هاتمين في الصحراء التي يجهلون مسالكها، وهو الذي أمر الجيش الأموي أن يحز رأس الحسين الشريف ويفصله عن الجسد الطاهر، وهو مازال به رمق من حياة رغم جراحاته التي لا تحصى، ولم يكتف اللعين شمر بن ذي الجوشن بحز الرأس الشريف، بل جلس على ظهر الحسين بنعليه وضربه بالسيف، فانفضل الرأس الطاهر عن الجسد الشريف، ثم قام مجموعة من الخيالة بوطء الجسد الطاهر بخيولهم فتكسرت عظام الإمام الشهيد، وهل اكتفوا بكل هذا، لا وألف لا، حيث إن الحسة والنذالة دفعتهما إلى تعرية الأجساد الطاهرة وسلب ما عليها من اختام وملابس وهم يتادون خلال أفعالهم الإجرامية الشريرة: أحرقوا بيوت الظالمين، اقتلوا الحوارج، الخارجين على الدين، دين جدهم رسول الله.

دولة العدوان والبدع

إن هذه الدولة الأموية قامت على الباطل، وما قام على باطل فهو باطل، فقد انتزعت الحكم من الحكومة الإسلامية الشرعية في عهد الإمام الحسين بن علي (عليه السلام)، وهو الامتداد التاريخي والشرعي إلى أبيه وجده رسول الله، فمن عدوان هذه الدولة المنتصبة قتلها لعمار بن ياسر، وإنها دست السم إلى الإمام الحسن ربحانة رسول الله وسيد شباب أهل الجنة وهي القائلة «إن لله جنوداً من عسل»، ومنها أنها دشنت حكمها بغارات من التخريب والتقتيل ضد المسلمين أنصار محمد وعلي (عليهما أفضل الصلاة والسلام) بواسطة عصاباتهما أمثال النعمان بن بشير وزيد ابن أبيه، وسفيان بن عوف، ويسر بن أرطاة والضحاک بن قيس والحجاج بن يوسف الثقفي الذين تتبعوا شيعة علي قتلاً وسجناً واعتصاباً وحرقاً تحت كل حجر ومدبر، ومن ضحاياهم من أصحاب رسول الله والإمام علي حجر بن عدي وعمرو بن الحمق، ورشيد الهجري وجويرية بن مسهر العبدي وميثم التمار، وضصعة بن صوحان وعبدالله الكوا، وقد قام مجرمو الدولة الأموية ببدعة قطع الرؤوس عن أجسادها وقطع الأيدي والأرجل عن أجسادها وصلب أجساد ضحاياها، ودفن الأربيا - أحياناً وسجن الشيوخ والنساء والأطفال.

أما البدع التي أحدثتها الدولة غير الشرعية فهي عديدة منها: تحويل الحكم إلى النظام الوراثي الكسروي القيصري الذي كانت تعمل به الدولة الفارسية والدولة الرومانية والبيزنطية، ومنها بدعة سب إمام المتقين علي بن أبي طالب وآل بيت رسول الله لمدة من العقود ولم يوقف هذه البدعة إلا الخليفة الراشدي عمر بن عبدالعزيز الذي حكم من ٩٩-١٠١هـ ثم قتله أهله الأمويون بالسم وحملوا نعشه إلى مفواه الأخير وهم يتباكون.

وماذا بعد.. وماذا بعد؟

جاء الإسلام بتشريع ينص على أخذ الزكاة من أسلم، وأخذ الجزية من لم يسلم من